الفصل الثالث عشر

الولاء

﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

إن أي حدث تاريخي تم ذكره إنما يزداد أهمية للعبرة التي تصحبه، ولذلك فالفائدة الحقيقية من القراءة تتحقق بالتنفيذ العملي لما ورد بهذا الكتاب من مهام وتوصيات. وإن كنا معنيين بالصحبة الصالحة فذلك يرجع إلى ضرورة تواجدها في حياة كل مسلم حتى يقضي كل وقته في الخير. ولعل كلاً منا قد راجع قائمة المحيطين به وابتعد عمن يمكن أن يعوقه عن تحقيق أهدافه من عيشة هنية وميتة سوية ومرد غير مخز ولا فاضح، كما حدث لصلاح الدين في الفترة التي صار فجراً للأمة!

الوحدة طريق الارتقاء

بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد تولى صلاح الدين الأيوبي إمارة مصر منتدبا من قبل نور الدين محمود ومعلنا ولاءه له. وقد تبع ذلك إعلان نور الدين محمود سلطانا على الشام ومصر تحت إمرة الخليفة العباسي المستضيء بالله. ورغم عدم جدوى وجود خليفة ضعيف يسمح بأن تغتصب أراضيه ويتجرأ عليه كل من تسول له نفسه، إلا أن نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي تمسكا بالخلافة العباسية رغبة في التئام الأمة تحت قيادة واحدة، وهو ما يدل على قيمة الوحدة وأهميتها للأمة.

هكذا الدنيا، مابين سراء وضراء

أخذ صلاح الدين الأيوبي يتحرك عسكريا وفقا لسياسة نور الدين محمود الذي كان يرى ضرورة التوجه ناحية الجبهة الشرقية لمصر. وقد حاصر صلاح الدين حصني الكرك والشوبك، وكانا من أقوى الحصون لاعتلائهما قمتي جبلين. وبالتالي فإن اقتلاع هذين الحصنين من أيدي الصليبيين كان يتطلب وقتاً طويلاً ومجهوداً شاقاً. وبالإضافة إلى ذلك، تمكن صلاح الدين من أن يسقط ميناء آيلة ذى الموقع المهم بالقرب من العقبة. وكنتيجة لهذه الجهود، توطدت العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين، كما كان ذلك يعنى أماناً كبيراً للحجيج إذ أتيح لهم التحرك في ظل حماية دائمة من صلاح الدين ودونما أن تمتد إليهم أيدي الصليبيين بالأذى كما كان يحدث من قبل عند تعرضهم للحجيج والتجارة والنساء. وفى الواقع، فإن سقوط آيلة كان بمثابة الإنذار للصليبيين بقدوم المارد صلاح الدين الأيوبي!

ولكن أثناء فتح آيلة توفى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين في عام خمسمائة تسع وستين هجرية. وبعدها بفترة وصلت إلى صلاح الدين أخبار وفاة أخيه الأكبر طوران شاه باليمن. وكان قد سبق ذلك وفاة كبار المحيطين بصلاح الدين مثل جمال الدين الأصفهاني ثم أسد الدين شيركوه.

غياب الراعي وتفرق الرعية

وأثناء تفكير صلاح الدين في استغلال قدراته العسكرية المتنامية، توفى نور الدين محمود في الحادي عشر من شوال لعام خمسمائة تسعة وستين هجرية. وعندما علم صلاح الدين بتلك الوفاة، انفجر في البكاء خاصة أنه لم يكن قد رأى نور الدين محمود منذ أكثر من سبع سنوات عندما ترك الشام وانطلق إلى مصر. وقد زاد من وقع وفاة ذلك العبد الرباني والقائد الفذ أن ابنه إسماعيل كان مازال في الحادية عشر من عمره وبالتالي لا يستطيع أن يتولى مسئولية الحكم، مما أدى إلى استئثار كل أمير

من أمراء الشام بإمارته وأعلن ولاءه لنفسه، فعاد الأمر إلى ما كان عليه أيام عماد الدين زنكي عندما جاهد وكافح لتوحيد إمارات حلب وحمص وحماة ودمشق وبعلبك والموصل. ولم تبق غير حلب تحت إمرة إسماعيل بن نور الدين محمود. أما بالنسبة لبقية المدن، فقد استأثر شمس الدين بن المقدم بدمشق، وعز الدين جرديك بحماة، وشمس الدين بن الداية بحلب بصفته الوصي على الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وسيف الدين غازي بالجزيرة والموصل وكان ابن عم الصالح إسماعيل. وهكذا انفرط العقد فجأة وعادت الشام مقسمة!

ولاء المخلص

وقد انتابت صلاح الدين الأيوبي الحسرة لذلك التفكك، وظل وحده معترفا بالصالح إسماعيل أميرا للشام ومصر. وهنا يتضح مدى ولاء صلاح الدين لنور الدين محمود حتى بعد وفاته حتى إن خطبة الجمعة الأولى التالية لوفاته شهدت الدعاء للصالح إسماعيل، كما ضرب اسمه على العملات. وبهذا يكون صلاح الدين قد برهن على الرغم من وضعه القوى كأمير لكل من مصر، وليبيا، وجزء كبير من تونس، والنوبة، وجزء كبير من السودان، واليمن. وذلك بالإضافة إلى قوته العسكرية من عدد وعدة والتي كانت تؤهله أن يكون الأقوى بين الأمراء. ولكن الولاء بالنسبة لصلاح الدين لم يكن للأقوى، وإنما الولاء للأمير الموجود وفقا لحديث الرسول ﷺ الذي يتحدث فيه عن الطاعة والولاء لأي أمير قائلا: **"وإن ولى عليكم عبد حبشي رأسه زبيبة"**. إذن فالولاء للأمير ليس مرتبطاً بشكله، أو بالاتفاق معه في وجهات النظر، أو بإمكانياته. وكان الصالح إسماعيل هو الخليفة الشرعي لأبيه نور الدين محمود، فلم يكن هناك داعي للتفرقة ما بين الإمارات.

تلبية النداء

وكان من الطبيعي في ظل هذه الفرقة أن يلجأ أهل الشام إلى استدعاء صلاح الدين الأيوبي الابن البار لنور الدين محمود بهدف مساعدة الصالح إسماعيل على لم الشمل من جديد. ولذلك، أصبح لزاما على صلاح الدين أن يتحرك خاصة وأن الصليبيين استغلوا وفاة نور الدين محمود وشنوا غارات على بنياس وحارم وجعبر وغيرها من المناطق الشمالية. وعندها، بدأ صلاح الدين في إعداد جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ليزحف على الشام محاولا إعادة توحيد إماراتها تحت إمرة الصالح إسماعيل.

وفى بداية مسيرته، وصل صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق واستطاع أن يقنع شمس الدين بن المقدم بضرورة أن يكون الولاء للصالح إسماعيل. وانضم شمس الدين بن المقدم لجيش صلاح الدين في حين تم تعيين سيف الإسلام إسماعيل بن طغتكين أميرا على دمشق. أما بالنسبة لحلب، فكانت الأمور أكثر تعقيدا. المفروض أن هذه الإمارة تقع تحت إمرة شمس الدين بن الداية بوصفه الوصي على الصالح إسماعيل، ولكن تمكن سعد الدين كمشتكين من حبس شمس الدين بن الداية وفرض نفسه وصيا بالقهر على الصالح إسماعيل. وللأسف، فما برح سعد الدين أن علم بوصول صلاح الدين إلى الشام حتى أسرع بالتفاوض مع ريموند وبوهيموندو الأميرين الصليبيين في أنطاكيا وطرابلس، واتفق معهما على الدفاع المشترك ضد صلاح الدين الأيوبي. وقد طلب الصليبيون في تلك اللحظة الإفراج عن أرناط، ذلك السفاح الذي سفك دماء أعداد كبيرة من المسلمين أثناء إغارته على القوافل التجارية، حتى إن قوافل الحجيج لم تسلم منه. ورغم كون سعد الدين كمشتكين مسلما ، إلا أنه تنكر لتعاليم دينه وأفرج عن السفاح أرناط صاحب الأيدي المغمورة بدماء المسلمين، وذلك في مقابل أن يعاونه الصليبيون على القضاء على صلاح الدين الأيوبي. وفى الحقيقة، لا يخلو التاريخ من شخصيات مثل سعد

الدين كمشتكين التي تصيب الإنسان بالغثيان عندما يتعرف على أفعالها. فهل اتفق سعد الدين مع الصليبيين وأطلق سراح السفاح أرناط من أجل الإسلام؟ أم من أجل نفسه الأمارة بالسوء؟ والأسوأ من ذلك، أنه اتفق أيضا مع سعد الدين غازي، ابن عم الصالح إسماعيل، على محاربة صلاح الدين. وأيا ما كانت الأسباب التي دعتهما للخروج عن الجماعة، فهل يجوز أن تصل بهما الأمور إلى الإقدام على ما فعلاه في حق الأمة؟

وفى المقابل، فعندما سئل صلاح الدين من قبل بعض الدمشقيين عن سبب مجيئه بعشرة آلاف جندي من مصر، أجاب: "والله ما حضرت هاهنا إلا لجمع كلمة الإسلام وتهذيب الأمور. فإنما أبغى دفع الأذى عن ابن نور الدين محمود وإحاطة الرعية بضرورة الوحدة وسد الثغرات في أوجه الصليبيين لحماية أرض الإسلام من شرورهم".

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

بعد استقرار الأمور في دمشق، زحف صلاح الدين شمالا إلى حماة الواقعة تحت إمرة عز الدين جرديك. وللحق، فما أن وصل صلاح الدين إلى حماة إلا أن سلمه عز الدين الإمارة، فأبقى عليه صلاح الدين بعد أن اطمأن لولائه. وبعد فترة قصيرة، قام صلاح الدين بإرسال عز الدين جرديك إلى سعد الدين كمشتكين في حلب للتفاوض معه. ولكن سعد الدين أبى إلا أن يعبر عن حقارته، فأسر عز الدين ووضعه في السجن كما فعل من قبل مع شمس الدين بن الداية. وبدا لصلاح الدين أن الأمر لن يحسم إلا بمعركة حربية بينه وبين سعد الدين كمشتكين وسيف الدين غازي لتخليص الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود.

ووقف صلاح الدين بجيشه على أسوار حلب وهى من أقدم المدن تاريخا، فهي أقدم من القاهرة ودمشق، وبالتالي كانت محصنة تحصيناً جيداً. وأثناء حصار صلاح

الدين لها، دارت المفاوضات في خيمة صلاح الدين بينه وبين المبعوثين من قبل سعد الدين كمشتكين وسيف الدين غازي. وقد أبدى صلاح الدين إصراره على الإبقاء على حياة ومصالح الصالح إسماعيل، ولكن سوء الظن كان يستأثر بمفاوضيه. وأراد صلاح الدين أن يبرهن على حسن نواياه فقبل أن يترك لهم حمص وحماة وأية مدينة شامية فيما عدا دمشق ليحكمها بالنيابة عن الصالح إسماعيل الذي يتولى رسميا أيضا مصر وما فيها من أملاك. وبالرغم من كل تلك التنازلات إلا أن سعد الدين كمشتكين وسيف الدين غازي رفضا كل ذلك وشرعا في الاستعداد لمقاتلة صلاح الدين الأيوبي. وكان كل منهما لا يعبأ إلا بطمعه وجشعه، غير عابئين بمصلحة الأمة.

وواجه صلاح الدين في شهر رمضان المعظم جيشا تحارب فيه قوات كل من سعد الدين كمشتكين وسيف الدين غازي، جنبا إلى جنب مع الصليبيين! وتقهقر صلاح الدين قليلا لإعادة حساباته وعسكر ليلة موقعة أراد فيها فتح حلب. ولكن كانت يد الخيانة تستعد لعمل شرير آخر بعد أن اغتالت من قبل بلك بن بهرام، أمير من بني أرطق، وعماد الدين زنكي. وكانت الخيانة هذه المرة تتربص بصلاح الدين الأيوبي. لمصلحة من يا ترى كانت تعمل تلك اليد الغادرة؟ الإجابة تكمن في ذهاب سعد الدين كمشتكين إلى أمراء الطائفة الباطنية وهى من الطوائف الخارجة عن الدين والتقى بقائدهم راشد الدين سنان وطلب منه اغتيال صلاح الدين الأيوبي. وأعضاء هذه الطائفة يعتبرون بمثابة سفراء الموت حيث كانوا يقترفون الاغتيالات واحدا بعد الآخر. وبدت معالم المؤامرة تتضح ليلة موقعة حلب، فإذا بمجموعة من الدخلاء على جيش صلاح الدين تنفذ داخل خيمته. وكان صلاح الدين نائما، ولكنه استيقظ في اللحظة المناسبة، وكاد أن يجرح جرحاً شديداً في رقبته يودى بحياته لولا أن تنبه أحد الجند للخائن فقتله. وقد تأثر صلاح الدين من ذلك الموقف إذ أنه ما أتى إلى الشام إلا ابتغاء تحقيق الوحدة وحماية ابن نور الدين محمود،

ولم يكن يريد قتالا إلا أن اضطره الخائنون لأمتهم إلى ذلك. وفى تلك اللحظة من التأثر دارت الفكرة التالية في ذهن صلاح الدين: "والله ما أنقذني رب العالمين من الموت إلا لأمر جعلني الله تبارك وتعالى سبباً لحدوثه".

وبدأ صلاح الدين في ضرب حلب، ولكن نظرا لمناعتها، لم يستطع القائد المسلم اختراقها، فتقهقر مبقيا على ما تحت يده من إمارات حمص وحماة ودمشق وبصري.

استجمام صلاح الدين!

وعاد صلاح الدين الأيوبي إلى مصر بعد ثلاث سنوات من آخر مغادرة لها. وأراد صلاح الدين أن يأخذ قسطاً من الراحة بعد التلاحمات العسكرية المتتالية التي واجهها، فذهب إلى الإسكندرية. ولكن حتى الراحة بالنسبة لصلاح الدين كانت لا تخلو من العمل لصالح الأمة والرعية إذ شرع في تعلية أسوار المدينة، وضاعف من عدد السلاسل بها وبمدينة دمياط، كما اهتم بعمارة الإسكندرية. وكان يحضر صلاح الدين مع أبنائه دروس الدين ثلاث مرات أسبوعيا. وقد بلغ وقتها عدد أبناء صلاح الدين سبعة عشر يكبرهم ابنه الأفضل. وكانت تلك الدروس تعقد أيام الخميس والجمعة والسبت للإمام السلفي في الإسكندرية.

فهل كان صلاح الدين الأيوبي متفرغا لتوحيد الأمة والجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى؟ أم أنه كان معنيا بحضور دروس الدين؟ في الواقع، إن حضور صلاح الدين للدروس مع أولاده هو أمر ضروري للأبناء حتى يشعرون بإحاطة الأب لهم، ابتغاء مرضاة الله العلى القدير وتكاملا لأفراد الأسرة الواحدة. ولذا، فعلى كل أب، مهما كانت مسئولياته أن يفرغ وقتا يقضيه مع أسرته لتذكيرهم بالله جل علاه، وليس لمجرد الاجتماع على المأكل والمشرب فقط. فما أطيب أن تجتمع الأسرة لذكر آيات قرآنية وأحاديث نبوية وتدارسها، وتدبر مواقف الصحابة الكرام

ﷺ ورضوا عنه! وبالتالي يزداد الإيمان عند جميع أفراد الأسرة ويجازيهم الله على جلستهم في ذكره في الحياة الدنيا بتجمعهم في جلسات النعيم الأبدي بالجنة.

الدرس

بلغت الأخبار إلى صلاح الدين أن الصليبيين عادوا للإغارة على بنياس، فكان ذلك استنفارا لشهامته ورجولته واستعد للعودة إلى الشام لمواجهة المعتدين، على رأس جيش قوامه عشرين ألف مقاتل. وتحرك صلاح الدين سريعا بالقرب من بيت المقدس ليتجه نحو منطقة الرملة. وهناك حدث أمر لم ينسه صلاح الدين بقية عمره، بل كان سببا في تغيير منظومة تفكيره إلى حد ما، إذ أنه خسر معركة أمام مجموعة بسيطة من جند الصليبيين. ولتكن خسارة تلك المعركة أو"الدرس" الذي وعيه صلاح الدين الأيوبي موضوع الفصل القادم بما فيه من تفاصيل، وعبر، وعلاقته بشخصية صلاح الدين، وأثره على الشعب، وتفاعل الشعب المصري إثر تلك الهزيمة التي حدثت في الرملة.

تضمن هذا الفصل أحداثا تاريخية عديدة تباينت فيها النيات ما بين مواقف وأحداث أراد لها صاحبها النية الحسنة ولكنها أخذت من قبل أطراف أخرى على غير ما قصد منها، وبين أفعال كانت فيها النية السيئة مبيتة رغم ادعاء صاحبها الانتماء إلى الإسلام. ولذا فالمطلوب من كل فرد أن يصحح نياته وأن يوجهها لصالح رفعة شأن الأمة. ومثالا على ذلك، ظل صلاح الدين يجاهد على مدار ثلاث سنوات لتحقيق الوحدة رغم ما أشاعه بعض المغرضين بأن تحركاته كانت تهدف إلى الهيمنة واتساع نطاق السلطة. وعلى كل منا أن يبدأ بتصحيح نيته مع الله جل وعلا ، ثم فيما يخص علاقاتنا بالآخرين ومعاملاتنا معهم. ولتسبق النية أي عمل أو قول من أعمالنا وأفعالنا حتى لا يصدر عنا إلا الصواب الذي نبتغي به مرضاة الله سبحانه وتعالى.